أدلجة الخطاب في رواية ليالي تركستان لنجيب الكيلاني

Discourse ideologization in najib al-kilani's Novel

فاطمة الزهراء مسيخ[1] * / محمد البشير مسالتي[2]

Fatima Zohra messikh[1] / Mouhamed Albachir messalti[2]

مخبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 /الجزائر

University of Mohamed Lamine Debaghine Setif 2/ Algeria

fa.messikh@univ-setif2.dz[1] /m.messalti@univ-setif2.dz [2]

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول: 2023/11/08	تاريخ النشر: 2023/12/15

مُلخّص البحث

إنّ ادلجة الخطاب الأدبي من الموضوعات البارزة عبر تاريخ الكتابة السرديّة، سنسعى من خلال هذه الورقة البحثية للكشف عن قضايا الإيديولوجيا في رواية ليالي تركستان لنجيب الكيلاني لأنّ كلّ النصوص الأدبية فيها ثيمات الأدلجة وأطروحات وخطابات إيديولوجية، وفي سبيل الاحاطة باشكالية البحث اعتمدنا على المنهج السوسيونصيّ لتقديم مفاهيم حول التعالق بين الأدلجة والأدب وأدلجة العنوان، إضافة إلى البحث عن الصراع الهوياتي والعقائدي انتهاء بتحليل النماذج الإيديولوجية للشخصيات .

وقد خلصت الدراسة إلى أنّ الأدلجة لصيقة بالأدب فهي رؤية للكاتب من ذاته ومن الناس وعن موقفه في الحياة.

الكلمات المفتاح : أدلجة، صراع، ليالي تركستان، نجيب الكيلاني، رواية.

Abstract :

Discourse ideologization constitutes a central aspect of literary analysis that has garnered enduring interest in the narrative writing tradition. This research paper aims to explore the nuanced ideological dimensions embedded within Najib Al-Kilani's novel, 'Turkistan Nights,' with a focused examination of its pervasive thematic complexities, ideological debates, and intricately constructed discourses. By employing a socio-semantic methodology, we endeavor to shed light on the interplay between discourse ideologization and the literary narrative, particularly delving into the significance of this process in

* فاطمة الزهراء مسيخ: fa.messikh@univ-setif2.dz

shaping the novel's title. Moreover, this study investigates the underlying identity and ideological conflicts, culminating in an exhaustive analysis of the characters' ideological perspectives. The findings of this study reveal that discourse ideologization profoundly influences the fabric of literature, offering profound insights into the author's introspective perceptions and societal stance, thereby shaping his philosophical outlook on life.

Keywords: ideologization,conflict, Turkestan nights, Nadjib Al-Kilani, novel.

مقدمة:

تعدّ الرواية جنسا أدبيّا بارزا، فقد أصبحت وعاء يحتوي العديد من الأحداث والقضايا بمختلف أبعادها، والتي تعكس التوجه الإيديولوجي لمؤلفها بشكل واضح ، فالرّواية أيا كان نمطها ومهما كتابها لا تنفلت من أسر الأدلجة.

وظّفت الرواية العربيّة البعد الإيديولوجيّ في نصوصها منذ بداياتها الأولى، ويعدّ الروائي المصري نجيب الكيلاني ذو التوجه الإسلاميّ من الكتّاب الذين وظفوا الإيديولوجيا في أعمالهم الروائيّة، حيث صوّر في رواية ليالي تركستان معاناة شعب مسلم تحت وطأة الاستعمار وفي مواجهة مدّ شيوعي خطير يسعى للقضاء على الهويّة الإسلاميّة.

سنحاول من خلال هذه الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية: ما مظاهر الصّراع الإيديولوجي التي عالجها الكاتب؟ وأين تجلت أبعاد هذا الصراع في الرواية؟

تمثل ليالي تركستان فضاء لجملة من الصراعات المتداخلة، وقد سعينا من خلال الدراسة إلى إبراز جمالية التفاعل بين المكونين الجمالي والإيديولوجي، مع التركيز على مظاهر الصراع الإيديولوجي في الرواية، وقد قسمنا بحثنا إلى ثلاث مسارات رئيسية:

أولا: الإيديولوجيا والأدب.

ثانيا: قضايا الأدلجة في ليالي تركستان.

ثالثا: النماذج الإيديولوجية للشخصيات.

أولا. الإيديولوجيا والأدب:

يعتبر الأدب شكل من أشكال الإيديولوجيا فلا وجود لنص أدبي يخلو من توظيف الإيديولوجيا فيه لهذا سنسعى لعرض طبيعة العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا

1. مفهوم الأدلجة:

إنّ مفهوم الأدلجة مفهوم متشّعب يصعب تحديده وذلك لاتساع المجالات الّذي ينتمي إليها من جهة، واختلاف النظريات والرؤى النقديّة المشتغلة عليه من جهة ثانية، فمصطلح الأدلجة يكتنفه الكثير من الغموض واللّبس، ويعود سبب الاختلاف في مفهومه ومدلوله أيضا إلى اختلاف آراء الدارسين والمشتغلين عليه في حقل الدراسات الأدبيّة والنقديّة على حدّ سواء، فبعض الدارسين يصّنفونه على أنّه مجمل المضامين الفكريّة التي يعبّر عنها النّص ويعتبرون المكوّن الإيديولوجيّ بأنّه وثيق الصلة بالتّوجه السياسيّ للمؤلف، أو إلى المذهب والعقيدة التي يتبناها، أمّا الدّارسون في حقل سوسيولوجيا الأدب تحديدا يعتبرون بأنّ الأدلجة عبارة عن "رؤية للعالم" vision du monde تعبّر عن موقف المبدع أو المؤلف، أمّا المنظور السّيميائي أو اللّساني يرى الإيديولوجيا بأنّها " مكون سيمولوجي"، وظهر هذا المصطلح عند الماركسيون إذ فسروه بأنّه "وعيّ زائف" يظهر في النصوص الروائية كما عبرّ عنه جورج لوكاتش" G.Lukucs"الذي حاول" تكوين سوسيولوجيا ماركسية للأدب والرواية تستوعب العلاقة المعقدة بين الأدب والرواية والإيديولوجيا والمجتمع"[1] أمّا لوسيان غولدمان" Lucien Goldman "الدارس في المجال سوسيولوجيا الأدب فيرى أنّ الرواية هي تعبير عن رؤيا للعالم لفئة اجتماعية محددة.

أخذ الفكر الإيديولوجيّ في الشيوع أكثر تزامنا مع ظهور الثورة الفكريّة الأوروبيّة، فقد "اجتاحت جيوش نابليون بونابرت الفرنسيّ أرجاء أوروبا حاملة لواء دعاة الأنوار، ودخلت في صراع عنيف مع سلطة الرّهبان والإقطاعيين والنبلاء، إلاّ أنّ مصالح نابليون العسكريّة

وأفكاره التوسعية ارتطمت بأفكار الإيديولوجيا الإصلاحيّة "دعاة الأنوار" الّتي أصبحت مصدر تهديد للسلطة العسكريّة، فعملت للإطاحة بأفكار الإيديولوجيين ونعت أفكارهم بالبعد عن الواقع والإغراق في الوهم"[2].

إنّ النظريّة الماركسيّة من أهّم النظريّات التي اشتغلت على الإيديولوجيا خاصة من جانب علاقتها بالشّكل الاجتماعيّ، فهي عمليّة تصوّر الواقع وترصد ديناميّة المجتمع، وبالتّالي تكون وثيقة الصّلة بالفكر لأنّ الإيديولوجيا لا تمثّل شقّ العلاقات الحقيقيّة التي تحكم وجود الأفراد، بل تمثّل العلاقة الوهميّة لهؤلاء الأفراد بالعلاقات الحقيقيّة التي تحكم وجود الأفراد»[3] وبالتالي وممّا سبق ذكره يتبين أنّ الماركسيّة تعتبر الإيديولوجيا رؤية زائفة لا تعكس الوعي الحقيقي للأفراد، فقد نظر إليها على أنّها ماديّة "فهي وجود ماديّ ينتج أثرا ماديّا"[4]، فقد اهتمت الماركسيّة ببنية المجتمع والعلاقات الإنتاجيّة القائمة فيه، إذ تقوم هذه الأخيرة على ثنائية العلاقة بين البنية التحتيّة والبنية الفوقيّة.

اكتسحت الإيديولوجيا الأعمال الأدبيّة فقد "اعتمد الإنسان على الإيديولوجيا كنظرية تستوعب من خلالها كل الأعمال الأدبيّة من الشّعر والمسرح والرّواية، وذلك منذ مطلع القرن العشرين ابتداء بملحمة هوميروس"[5] فأصبحت الإيديولوجيا مرتبطة بمختلف أشكال الأدب وأجناسه ارتباطا وثيقّا.

2. علاقة الأدلجة بالنّص الأدبيّ:

لا تكاد النّصوص الأدبيّة بمختلف أجناسها تخلو من التوظيف الأيديولوجيّ في نصوصها، وخاصة الروائيّة التّي تعدّ فضاء خصبا لكثير لتمرير المواقف الأيديولوجيّة للكاتب، ولذلك فإنّ الإيديولوجيا دائما موظفة في مختلف أشكال الأدب، فقد "ارتبطت الإيديولوجيا بالأدب منذ بدايتها المبكرة، دون أن يكون الأدب على وعي متبلور أو إدراك متعمّد بهدف توظيفها في مضمونه الفكري، لهذا اعتمد الإنسان على الإيديولوجيا كنظرية يستوعب من خلالها كل الأعمال الأدبيّة من الشّعر والمسرح والرّواية وذلك منذ مطلع القرن العشرين"[6]

يربط الأدب والإيديولوجيا علاقة جدليّة متداخلة "فالأدب بشكل طبيعي وفي حال وجوده مشحون بالإيديولوجيا، لأنّه نظرة إلى الوجود وإعادة صياغته للواقع، ولأنّ الأديب لا يخرج من محيطه وتجاربه الذاتية التي حصلت معه"[7] فلا يمكن تصور وجود قضايا تطرح أدبا دون أن يحتوي على وعي فكريّ وحضاريّ ورؤيا إيديولوجية يجسّدها كل كاتب في مؤلفاته.

وتعتبر النظريّة الماركسيّة العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا علاقة تأثير وتأثّر، وذلك من خلال الدعوة إلى اجتماعيّة الأدب من خلال نظرية الانعكاس، التي تنظر إلى الأدب على أنّه "إنتاج لا يوجد إلاّ بالعلاقة مع الإيديولوجيا، ومع التاريخ، تاريخ التشكّلات الاجتماعيّة وتاريخ الإنتاج الأدبيّ"[8]

وممّا سبق ذكره فإنّ الأدب والإيديولوجيا متلازمان، وقد أكدت "فادية المليح حلواني" على قضيّة ارتباط الأدب بالإيديولوجيا من خلال قولها «ارتبطت الرّواية بالإيديولوجيا، لأنّها من أوائل جنس الفنون الأدبيّة التي طبقت عليها مفاهيم الإيديولوجيا (...) ومنذ نشوء الرّواية إلى اليوم فحوامل الإيديولوجيا في الرّواية أكثر من أيّ نوع أدبيّ آخر"[9]، فهذه التقنيات السرديّة هي المؤشر الأساسي للوصول إلى إيديولوجيّة الكاتب ورؤيته، فالأديب في مرحلة إنتاجه للنّصوص يخضع لجملة من المؤثرات والظروف "التي تتحكم في عمليته الإبداعيّة وتجربته الحياتيّة بأبعادها النفسيّة والإيديولوجيّة والاجتماعيّة، ومجمل الصراعات الفكريّة القائمة بمجتمعه وعصره"[10].

إنّ العلاقة التي تجمع الإيديولوجيا بالأدب هي أنّها علاقة غامضة ومبهمة، تسير في اتجاهات متعددة الرؤى والمذاهب حول طبيعة الأدب في حدّ نفسه.

ثانيا. قضايا الأدلجة في ليالي تركستان:

يعدّ نجيب الكيلاني ورائد الأدب الإسلامي، قال عنه نجيب محفوظ بأنّه منظّر الأدب الإسلاميّ، فهو روائي غزير الإنتاج ينطلق في من رؤية إسلاميّة ليعبّر بالوسيلة الفنيّة الإبداعيّة عن قيّم ومثاليات دينيّة معقدة، وهو المعبّر عن هموم الشّعب الإسلاميّ أينما حلّ، فقد خرج

في كتاباته عن الإقليميّة ليطرح قضايا تخصّ الأمّة الإسلاميّة، معالجا في ذلك جروحا شتّى في جسد العالم الإسلاميّ وقد اصطبغت أغلب كتاباته بالطابع الإنسانيّ خاصة الروائيّة منها.

قدّم نجيب الكيلاني رؤيته الخاصّة حول قضايا سياسيّة ودينيّة ذات بعد إيديولوجيّ، تمس كيان ووجود دولة تركستان كدولة مسلمة، يروي السّارد تفاصيل الاحتلال الصينيّ لتركستان الشرقيّة وتأزم الأوضاع الداخلية فيها، فقد احتدمت أحداث الصّراع في الرواية من خلال المنشور الذي أصدره القائد الصيني، والذي يقضي بإرغام أهالي وسكان مقاطعة "**قومول**" على تزويج بناتهم من المستوطنين الصينيين، بغضّ النظر عن الاختلاف العقائدي والديني بين البلدين.

يصوّر السّارد أشكال التّعدي على الأهالي المعارضين للقرار، وكذلك مظاهر التعدّي على المقدسّات فانتهكت حرمة المساجد وحرقت المؤلفات الدينيّة والمصاحف، في محاولة من العدوّ لطمس مقومات الهويّة لبلد مسلم خاصة في القسم الشرقيّ منه حيث عملوا على نشر التّفرقة وزرع الخلاف بين أبناء الشّعب الواحد.

1. أدلجة العنوان:

يعتبر العنوان عتبة مهمّة للدخول إلى أغوار النّص، فهو بمثابة المفتاح الذي يلج به الباحث إلى خبايا النّصوص، وقد حظي بالكثير من الاهتمام خاصة في مجال المقاربة السّيميائيّة، فرولان بارث يرى أنّ العناوين "عبارة عن أنظمة دلالية سيمائية تحمل في طياتها قيما أخلاقية واجتماعيّة وإيديولوجيّة، وهي رسائل مسكوت عنها تأتي مضمنة بعلامات دالة متتبعة برؤية العالم"[11] وتبقى مهمة النّاقد أو المتلقي بصفة عامة هو فكّ الشّيفرة التي تحتويها العناوين لاستنطاق مدلولاتها وتسهيل الدخول إلى أغوار المتون" فالحضور العنوانيّ يرتبط بالثّقافة الكتابيّة وهو يبرز أمام المتلقي القارئ بوصفه شاهدا على النّص الموجود بقوة الكتابة، ويتمركز في قمّة الهرم النّصي ليدلّ على ذاته وعلى فضاء النّص وطبيعته"[12] فالعنوان وسيلة فعّالة للتواصل بين المبدع والمتلقّي، وهو وسيط ناجع بين منتج النّص ومتلقّيه سواء كان قارئا

أو ناقدا فهو نقطة العبور إلى متون النّصوص، كما يؤكّد محمد مفتاح أهميّة العنوان الذي يرى أنّه "أوّل مفتاح إجرائي تنفتح به مغالق النّصوص، كونه علامة سيميوطيقيّة تضمن لنا تفكيك النّص وضبط انسجامه فهو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد نفسه"[13] وعنوان "ليالي تركستان" يمثل علامة سيميائية بارزة تحمل شحنات دلاليّة يتحدّ فيها الجماليّ مع الإيديولوجيّ.

اختار الروائيّ "ليالي تركستان" كعنوان لروايته، وهو عنوان مشحون بالعديد من الحملات الدلاليّة والإيديولوجيّة، وتعدّ الوظيفة الإيديولوجية للعنوان وظيفة رئيسية فهي بمثابة الرؤيّة الأوليّة لمضمون النّص الرّوائي، ومن خلال شيفرة اللّغة الموظفّة في عنوان "ليالي تركستان" يتبيّن أنّ الروائيّ قد استند على بعد سياسيّ وطنيّ، يحمل في طياته إيديولوجية السّارد في رصد معاناة تركستان المحتلّة وويلات الحرب والفقر والتّشريد التي تعاني منها، وقد ربط الروائيّ تركستان بلفظة اللّيل وما تحمله لفظة اللّيل من مدلولات الحزن والظلام والضّياع، فمعاناة تركستان وشعبها كبيرة تحت وطأة العدّو، الذي حاول بشتّى الطرق والأساليب التعدّي على مقوّمات الشّعب التركستانيّ الدينيّة والوطنيّة، وبهذا فإنّ المركب اللّفظي "ليالي تركستان" يحمل بعدا واقعيا يعكس مأساة تركستان الدّولة والشّعب في فترة الغزو الصينيّ، إضافة إلى سعي الطرف الروسي إلى التحالف مع الصّين من أجل القضاء على الإسلام عن طريق فرض نفوذه في ربوع الوطن من خلال سياسته الشيوعيّة التي يسعى لبسطها في ربوع العالم الإسلامي لطمس هويّته ومحو معالم شخصيّته.

يحمل العنوان أبعادا إيديولوجيّة وجمالية، ويتجلّى ذلك من خلال ربط الكاتب لكلمة تركستان بلفظة "اللّيل" ليعطيها بعدا جماليّا وفنيّا وتشكيلا إبداعيّا، والمقصود من توظيف اللّيل ليس بيان الفترة الزمنيّة، وإنّما بيان ما تحمله مدلولات اللّيل من تيه وحزن وضياع، فتركستان تعيش ليلا طويلا لا نهاية له تنتظر بصيصا من النّور ليخترق الظلام الحالك، لهذا فإنّ المستوى اللّساني للغة يتظافر مع المستوى الإيديولوجي والجمالي للعنوان.

2. الصراع الهوياتي في ليالي تركستان:

يصوّر السّارد عدة صراعات في تركستان الشرقيّة أثناء فترة سيطرة الغزو الصينيّ على أراضيها، وفرض نفوذها السياسيّ والإيديولوجيّ على جميع الأصعدة، ممّا أدّى إلى تشتيت شعبها ومعاناته أشّد المعاناة على جميع المستويات خاصة الاستراتيجيّة السياسيّة والدينيّة، فالرّواية تطرح عدة قضايا سياسية ذات أبعاد إيديولوجية تمسّ كيان دولة تركستان الشرقيّة أولاً وهويّة شعبها ثانيا، هذا الشّعب المقاوم المتمرّد الذي يرفض قيود المستعمر وسلطته، فقد صوّره السّارد على أنّه شعب أبيّ يسعى دائما للكفاح المتواصل لتحقيق رغبته في الحرية والانفلات من سيطرة العدو الغاشم الذي يسعى بشتى الطرق لطمس هويّته وتشويه صورته وتشتيت شعبه، فقد عانى الشّعب التركستانيّ أشدّ المعاناة خاصة في ظل عدم تكافئ طرفي الصّراع في المواجهة، فالصّين تتفوق بالقوة العدديّة والماليّة والسلاحيّة، إضافة إلى الدّعم الخارجي الذي يسعى إلى تقاسم خيرات تركستان الشّرقية لما تزخر به من مميزات بما فيها موقعها الاستراتيجي الهام، بالإضافة إلى أنّها أرض الثروات الطبيعية إذ تتميز بشساعة أراضيها وتنوع خيراتها، إضافة إلى الموقع الاستراتيجيّ الذي تزخر تركستان ممّا جعلها محل أطماع للصين وروسيا على حدّ سواءٍ، لهذا عانى الشعب التركستاني من الشتات والضياع والتهديد والضّرب في أهمّ مقومات الهويّة الوطنيّة، فحاولوا أن يضربوا بقوة الهويّة الإسلاميّة مستعملين مختلف أشكال العنف على الأهالي لتنفيذ مخططاتهم الاستذمارية.

حاولت الصّين ضرب تركستان في مقومات هويتها، فالهويّة لها علاقة بالذّات وما يختلجها داخليّا، كما أنّ لها علاقة بالجماعة، وهي تتفتح على الآخر، وتعتبر الهويّة نقطة تقاطع مجموعة من الموضوعات والمفاهيم الأساسيّة التي تشّكل جوهر الفكر المعاصر، ويمكن قول إنّ جميع الحضارات التّقليدية تجتاز أزمة هويّة ضائعة باعتبار أنّ هوية أي مجتمع وأمّة هي وجوده وكيانه، وترتبط أزمة الهويّة بمجموع التّحوّلات والتّرسّبات المعرفيّة والفكريّة

والسّياسيّة والإيديولوجيّة المتراكمة والتّي تنتج نسيجا في تكوين الحضارات، وقد حاول الغزو الصّينيّ ضرب الشّعب التركستانيّ في أهم مقومات الهويّة وهو الدّين الإسلامي.

وبرغم مرارة التسلّط إلاّ أنّ الأمور كانت تسير بشكل عادي إلى غاية إعلان القائد الصيني منشورا هز أرجاء تركستان، هذا المنشور الذي يقضي بإلزام تزويج الفتيات المسلمات من الرجال الصينيين الذين يتقدمون لهنّ، فقد وقع أثر هذا القرار مثل الصاعقة في نفوس شعب تركستان، فأصبح الأهالي يهرّبون بناتهم إلى أماكن معزولة لكي لا يتمكنّ منهم العدو، فعلا إنّه قرار مصيري يمسّ هويّة تركستان ودينها، فكيف لفتاة مسلمة ترعرعت على تعاليم الدّين الإسلامي أن تتزوج بصيني كافر لا يؤمن بوجود اله أصلا؟ إنّه قرار إيديولوجيّ ذو بعد سياسي يمسّ هويّة وكيان شعب وأمّة كاملة، يصوّر السّارد مرارة هذا في وسط الجمهور وفي نفوس البنات التركستانيات المغلوب على أمرهنّ، وهذا ما لم يستطع شعب تركستان تقبّله فقد عارضوا القرار معارضة قاطعة ودافعوا عن هويّتهم الإسلاميّة بكلّ ما أوتوا من قوة، ودخل أمير قومول في مناقشة حادة حول الموضوع يقول القائد الصيني: "أيّها الأمير لقد عزمت على مصاهرتك أنت بالذّات يا أمير.....

– هذا أمر الله أنت تعلم أيها القائد أن هذا مستحيل.

– قهقه القائد في سخرية « أنا لا أعرف المستحيل أيّها الأمير لا دخل للآلهة في شؤون الحب لقد أحببتها...

– لقد درج الفاتحون على احترام عقيدة البلاد المفتوحة... "[14].

فكلّ شخصية تعدّ نموذجا لصراع إيديولوجيّ، إنّ قرار تزويج الفتيات النركشانيات من الجنود الصينيين يمثّل مذلّة كبيرة ومشكلة مستعصية يصعب حلّها، أمّا الطرف الصينيّ فقد استحسن الأمر وفكرة الزواج من الفتيات التركستانيات قد راقت لهم كثيرا، فالزّواج منهنّ يمثل فرصة قويّة لفرض نفوذهم وتقويّة سلطتهم، وقد ازدادت الأمور تعقيدا من خلال سعي التحالف الصينيّ الروسيّ في فرض سياسته الشيوعيّة عبر ربوع العالم الإسلامي ومحاربة

الإسلام والمسلمين، وفعلا قد نجحت خططهم في تقسيم بلاد تركستان إلى قسمين تركستان الشّرقية تحت سيطرة الغزو الصيني، وتركستان الغربيّة تحت حكم الاتّحاد السوفياتي.

استحضر السّارد أحداثا حقيقية من هذا الصّراع الممتد تاريخيا من عام 1900 إلى 1950، وقد خلف هذا الانقسام عدّة أضرار على تركستان ممّا أدى إلى تفرقة وتشتّيت أبناء البلد الواحد، وفي المقابل تزايد الوعي التّحرري من قبل الشّعوب المستعمرة في مواجهة الاحتلال بجميع أشكاله فعزمت الجماعة الوطنيّة الثوريّة على توحيد الصفوف وجمع الشّمل بين الأطراف المختلفة، فقوة الإرادة لدى الثوار أمثال **مراد حضرت وخوجة نياز ومنصور درغا**، مكّنهم في النهاية من إخماد نيران الفتن، وتقوية العزيمة في نفوس الشباب من أجل المقاومة، فنشبت معارك مختلفة مع العدو في مختلف مقاطعات تركستان الشرقيّة، فكانت المعارك مع العدو كرّ وفرّ، وبرغم الهزائم التي لحقت بالتركستانيين في العديد من المرّات إلاّ أنّ إيمانهم بالنصر كان قوياّ وعزيمتهم كانت فلاذية فتمسكوا بدينهم وهويّتهم الإسلاميّة، ودافعوا عن أراضيهم لآخر نفس فالمتعارف على التركستانيين أنّهم متشبّعون بالروح الثوريّة وهم أحفاد التّرك العثمانيين، يقدسّون الإسلام ولا يسمحون بالتّعدي عليه بأيّ شكل من الأشكال.

وقد كانت حادثة الهجوم على القصر وقتل القائد الصيني من قبل الثوّار دريعة من أجل الانتقام من قبل التحالفين الصيني والروسي، يقول أحد المناضلين بعد الحادثة "أنا أقول أنّه لا نهاية لعذابنا ما دمنا بين كماشتين فكّها الأوّل الصين وفكّها الثاني روسيا وكلاهما طامع فينا ويريد القضاء على إسلامنا، لأنّ القضاء على الإسلام قضاء علينا... إنّها حرب صليبية من نوع جديد"[15] وفعلا كانت هذه الحادثة بداية لسلسلة من المعارك المتواصلة مع العدوّ، إذ سعى العدو إلى طمس الهويّة الإسلاميّة للشّعب التركستاني.

3. الصّراع العقائديّ في ليالي تركستان:

يروي السّارد في رواية "ليالي تركستان" أحداث الصّراع الذي آلت إليه دولة تركستان الشرقيّة، احتدم هذا الصّراع إثر حادثة مقتل القائد الصينيّ وحاشيته داخل قصر الأمير التركستانيّ، كانت الحادثة بمثابة الفتيل الذي أوقد نار الحرب بين الطرفين، وها هي الصّين تقوّي أجهزتها الحربيّة مدعومة بروسيا من أجل تحقيق مصالحها الشخصيّة في المنطقة هي الأخرى، وأصبح الصّين بمثابة الدميّة التي يحرّكها القطب الروسي كيفما شاء، وسقط الشّعب التركستانيّ بين شراسة العدو الصّينيّ من جهة والانقسام الداخليّ في صفوفه من جهة أخرى، وأصبحت تركستان الشرقية بؤرة لصراع قوى إيديولوجيّة تحركها الشيوعيّة كحركة سياسيّة إيديولوجيّة تسعى إلى تفكيك نظام الحكم، وإلى ضرب الإسلام في عمقه وتشتيت وحدة شعب تركستان وزرع التفرقة في صفوفه.

وقد صوّرت الرواية حدّة هذا الصراع الحضاريّ العقائديّ بين الطرفين، فمن جهة تركستان في ظل الحضارة الإسلاميّة الشرقيّة والتحالف الصيني الروسيّ ممثّلة الحضارة الغربيّة ذات التّوجه الشيوعيّ من جهة أخرى، وقد رصد السّارد تطور هذا الصّراع الذي أدّى في نهاية المطاف إلى اشتعال الحرب بين الطرفين، في فترة كان فيها العالم يشهد تغيرات جذريّة وصراعات سياسيّة فكريّة وإيديولوجيّة، فالفترة الممتدّة من 1900 إلى 1950 شهدت أكبر حربين في تاريخ البشرية، إضافة إلى ما صاحب هذه الحروب من سياسات استراتيجية يسعى كل طرف فيها لفرض نفوذه وسياسته ومذهبه الأيديولوجيّ، ومثّل التحالف الصينيّ الروسيّ قوى عالميّة عظمى في هذه الحروب، وفي المقابل كانت أغلب دول العالم العربيّ والإسلاميّ تعاني تحت وطأة الاستعمار، غير أنّ هذه الشعوب زاد وعيها بضرورة الاستقلال والتحرّر واقتنعت أنّ الوسيلة الوحيدة في سبيل ذلك هو الكفاح المسّلح فقد "مضت الثورة في طريقها، و تهاوت القلاع الصينية تحت ضربات الرجال الجبابرة، وتراخت قبضة حاكم الصين على تركستان الشرقيّة"[16].

توالت المعارك بين العدوّ وأحيانا النّصر كان حليف التركستانين وأحيانا أخرى كانت الغلبة للصينيين، غير أنّ الاستسلام لم يعرف طريقه إلى قلوب الثائرين، خاصة وأنّ الدافع وراء الحرب ليس مجرد استرجاع للأراضي المغتصبة، بل هي حرب إيديولوجية عقائديّة تسعى إلى طمس معالم الحضارة الإسلاميّة ونبذ الإسلام والمسلمين وهذا ما تفطن إليه الثوري المحنّك **خوجة نياز** في مخاطبته للثوّار «لا تحزنوا أيّها الرجال من قديم والكنيسة تسعى للقضاء عليكم... كانت تحرض روسيا على غزو ديارنا الإسلاميّة... لأنّ الكنيسة لم تنس أنّ محاربينا الأشّداء ساعدوا تركيا وعاونوا الحروب الصليبيّة... وبلادنا أيّها الأبطال لها ماضي وتاريخ وحضارة عظيمة, وهي أرض تمثل الثروات الضخمة، إنّ هناك ألف سبب وسبب تجعلهم يطمعون في أرضنا وأهمّها هو أنّنا مسلمون»[17] فالحقد الغربيّ يعود لسيطرة الكنيسة التي كانت تسعى للقضاء على الإسلام بشتّى الأساليب، يتوالى السّرد ويتابع السّارد في ليالي تركستان تصوير مظاهر التّعدي على المساجد والتفجيرات المتتالية داخل بيوت الله، وكذلك محاولاتهم المتكررة لحرق الكتب الدينيّة والمصحف الشريف، سعيا منهم لطمس الهويّة الإسلاميّة لشعب تركستان وتحويلها إلى دولة شيوعيّة تخدم مصالح التّحالف الروسيّ الصينيّ

ثالثا. النماذج الإيديولوجية للشخصيات :

اعتمد السّارد في روايته على تقنية تعدد الأصوات الناتج عن الاختلافات الإيديولوجّية للشّخصيات الموظّفة، بالإضافة إلى استخدامه لتقنيات أخرى كالسّرد والحوار... والاسترجاع... والاستشراف، فقد تنبأ نجيب الكيلاني سقوط الشيوعية قبل عقود من الزمن.

تعددت الشخصيات الموظفة في الرواية واختلفت توجهاتها الإيديولوجيّة، وهذا التعدّد يحيل على تعدّد الأفكار والإيديولوجيا المطروحة من قبل الكاتب، ويقوم هذا التّعدّد – أيضا– على إحداث نوع من الصّراع داخل المتن الروائيّ، فالصّراع يكون غالبا ناتجا عن التناقض الإيديولوجيّ للشّخصيات "فلا أحد يجادل أنّ الشّخصية تقع في صميم الوجود

الروائيّ ذاته إذ لا رواية دون شخصية تقود الأحداث وتنظّم الأفعال وتعطي القصّة بعدها الحكائي... ثم إن الشّخصية الروائيّة فوق كلّ ذلك تعتبر العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشّكليّة الأخرى"[18].

تظهر شخصيات الرواية محمّلة بأبعاد إيديولوجيّة من خلال تقنيّة الحوار الموظّفة من قبل الكاتب، والتي يسعى من خلالها إلى بيان مواقف مختلفة من قضايا التي يطرحها في نصّه الروائيّ فهو يهدف من خلال "وضع الأسماء لشخصياته أن تكون منسجمة بحيث تحقق للنّص مقروئيته وللشّخصية احتمالاتها ووجودها ومن هنا مصدر ذلك التنّوع والاختلاف الذي يطبع أسماء الشخصيات الروائيّة"[19]تعددت الشّخصيات الموظّفة في ليالي تركستان وتفاوتت من حيث أهميّتها والدّور الذي نقوم به، وسنحاول استظهار الموقف الإيديولوجي لبعض الشخصيات التي تعدّ رئيسية في مجريات السّرد والحوار وفي تحريك أحداث الرواية وهي كالآتي:

نجمة اللّيل: رمز التضحية والمقاومة شخصية محوريّة في الرّواية، نجمة اللّيل هي الوصيفة الأولى في قصر الأمير امرأة فائقة الجمال، تميزت نجمة اللّيل بالشجاعة والقوّة فهي تملك القدرة على اتخاذ القرارات في أصعب الظروف برغم المخاطر التي قد تلحقها، فقد عرفت بمواقفها البطوليّة، وتمسكها بدينها.

ضحّت نجمة اللّيل المرأة فائقة الرقة والجمال بنفسها من أجل إخماد نيران الحروب في قصر أمير **قومول** وهي الوصيفة الأولى به، فقد قررت الزّواج بالقائد الصينيّ باودين برغم كرهه للإسلام والمسلمين، والذي كان في بداية الأمر يطمح بالزّواج من أميرة القصر ابنة أمير **قومول**، وقامت نجمة اللّيل بتنفيذ خطة محكمة لتهريب العائلة الحاكمة من القصر، فلمّا دخل باودين القصر ورآها افتتن بجمالها وقد وافق على أهم شرط لها وهو إعلان دخوله الإسلام، فهي لا تتزوج رجلا كافرا.

وبعد هذه الحادثة ونجاح خطتها أقيم حفل زفافها من باودين، وكانت نجمة اللّيل تكنّ له كرها شديدا فهو مازال يحارب في صفوف الكفّار وقد تحملته كثيرا، حتى وصلت إلى حدّ النّفور فقررت أن تتخلصّ منه ومن شروره فدبّرت خطة محكمة من أجل التخلص منه.

خوجة نياز: تمثل هذه الشخصية الإديولوجيا الثوريّة، فهو ثوري يتحلّى بالقيّم الأخلاقيّة والدينيّة، كان دائما يزرع الإيمان بالنّصر في صفوف الثّوار في لحظات شعورهم بالضّعف والاستكانة أمام القوة الحربيّة للعدو الصينيّ فقد خاض الكثير من المعارك وانتصر في جمهورية **كاشغر** وأذاق الصينيين شرّ الهزائم فقد كان رجل مؤمن صارم في تعامله مع الأعداء يقول مخاطبا الثوار في أحد الاجتماعات "الحرب أيّها الرجال سجال... يوم لك ويوم عليك و قد عاهدنا الله ألاّ نستسلم حتى ننتصر أو نستشهد وقد كان يتطلّع إلى الجبال بعينيه القويتين ويحلم بغد أفضل"[20] كان خوجة نياز سياسيّا محنّكا يدرك نوايا العدو ويرصد تحركاته وعلاقته الخارجيّة وإيديولوجيته الشيوعيّة الممتدّة إلى روسيا، فأثناء مخاطبته للثوّار كان يسعى دوما إلى تقوية عزيمتهم في تحقيق النّصر وقد برز البعد الإيديولوجي في الرواية من خلال اللغة التي تستخدمها الشخصيات ويظهر ذلك من خلال السرد والحوار بحيث اعتنى الكاتب بالمستويات الصوتية التي لها علاقة مباشرة بتقنية تعدد الأصوات في الرواية.

خاتمة:

تعدّ رواية ليالي تركستان فضاء خصبا لمختلف الصراعات الإيديولوجية المستمدّة من الواقع، والتي التزم فيها الكاتب بالدفاع عن قضية وطنية قومية، تخصّ هويّة شعب تركستان وحقه في العيش في أمن وكرامة وقد توصلنا من خلال الدراسة إلى جملة من النتائج أهمّها:

– أدلجة الخطاب الروائي لنجيب الكيلاني تطغى على النّص فلا وجود لنّص روائي ينطلق من العدم، فالفنّان أو الروائي ابن بيئته ومجتمعه الذي تحكمه منظومة إيديولوجية، يخضع لها المؤلف وتكون مؤثرة في تكوين رؤيته للعالم.

– ليالي تركستان تعكس مظاهر الصراع الفكريّ والدينيّ والعقائديّ بين المسلمين والشيوعيين.

– نجيب الكيلاني من أهم الروائيين العرب الذين انطلقوا من مبدأ الواقعيّة الإسلاميّة في طرح موضوعاتهم وأفكارهم.

– التزام نجيب الكيلاني بطرح قضايا دينيّة تخص المجتمع الإسلاميّ المحافظ إضافة إلى طرحه لقضايا لصيقة بالمجتمع أهمّها قضيّة المرأة المسلمة.

– ليالي تركستان رواية حافلة بالعديد من الأحداث والصراعات الأيديولوجية بين شعب تركستان المسلم والمستعمر الصيني، وقد رصد الكيلاني أحداث هذا الصراع بين المسلمين والكفّار، وهي أحداث واقعية التزم فيها بالدفاع عن قضية تخصّ العالم الإسلاميّ وهي قضية الكفاح من أجل افتكاك الحريّة والاستقلال الوطنيّ.

– حضور شخصيات متعددة في الرّواية، لكلّ واحدة منها غاياتها وتوجهاتها لتتصارع فيما بينها في المتن الروائي، فكلّ شخصية من الشخصيات الموظفّة محمّلة بإيديولوجية تسعى إلى إبرازها.

هوامش:

[1] عمار بلحسن: **ما قبل بعد** الكتابة حول الإيديولوجيا، الأدب، الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، مجلد 5، العدد4، ص169.

[2] عمر عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي (دراسة سوسيوبنائية في رواية عبد الحميد بن هدوقة)، (2001)، منشورات المنتوري، (الجزائر)، ص13.

[3] عبد الغاني السلماني: الخطاب الثقافي في زمن التحولات (قراءة في المنجز الفكري والنقدي)، (2016)، سالم للكتاب الحديث، (الأردن)، ص6.

[4] المرجع نفسه 110.

[5] نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، (2003)، الشركة المصرية العالمية للنشر و التوزيع، (مصر)، ص80.

[6] عمار بلحسن: في الأدب و الإيديولوجيا، (1998)، المؤسسة الوطنية للكتابة، (الجزائر)، ص92.

[7] فادية لمليح حلواني: الرواية والإيديولوجية في سوريا، (1998)، دار الأهالي، (سورية)، ص 28.

[8] فيصل دراج: دلالة العلاقات الروائية، (1993)، دار كنعان للدراسات والنشر، (سورية)، ص 132.

[9] فادية لمليح حلواني: المرجع السابق، ص28.

[10] فيصل دراج: مرجع سابق، ص 132.

[11] فيصل الأحمر: معجم السيميائيات ، (2010)، الاختلاف، (الجزائر)، ص 277.

[12] محمد صابر عبيد: سيمياء الخطاب الشعري من التشكيل إلى التأويل (قراءة في قصائد من بلاد النرجس)، (2005)، دار مجدلاوي (الأردن)، ص148.

[13] محمد مفتاح: دينامية النص، (1990)، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، ص 72.

[14] نجيب الكيلاني: ليالي تركستان، (2012)، دار الصحوة، (مصر)، ص10.

[15] المصدر نفسه: ص80 .

[16] المصدر نفسه: ص 49 .

[17] المصدر نفسه: ص154.

[18] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، (2009)، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، ص20.

[19] المرجع نفسه: ص247.

[20] نجيب الكيلاني: مصدر سابق، ص15.

قائمة للمصادر والمراجع :

(1)الكتب:

1. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، (2009)، المركز الثقافي العربي، (المغرب).

2. عبد الغاني السلماني: الخطاب الثقافي في زمن التحولات (قراءة في المنجز الفكري والنقدي)، (2016)، سالم للكتاب الحديث، (الأردن).

3. عمار بلحسن: في الأدب و الإيديولوجيا، (1998)، المؤسسة الوطنية للكتابة، (الجزائر)

4. عمر عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي (دراسة سوسيوبنائية في رواية عبد الحميد بن هدوقة)، (2001)، منشورات المنتوري، (الجزائر).

5. فادية لمليح حلواني: الرواية والإيديولوجية في سوريا، (1998)، دار الأهالي (الجزائر).

6. فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الاختلاف، (2010)، (الجزائر).

7. فيصل دراج: دلالات العلاقة الروائية، (1993)، دار كنعان للدراسات والنشر، (سورية)

8. محمد صابر عبيد، سيمياء الخطاب الشعري من التشكيل إلى التأويل (قراءة في قصائد من بلاد النرجس)، (2005)، دار مجدلاوي (الأردن).

9. محمد مفتاح: دينامية النص، (1990)، المركز الثقافي العربي، (المغرب).

10. نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، (2003)، الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع، (مصر).

11. نجيب الكيلاني: ليالي تركستان، (2012)، دار الصحوة، (مصر).

(2) المجلات:

1. عمار بلحسن: "ما قبل بعد الكتابة حول الإيديولوجيا، الأدب، الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، مجلد 5، العدد4.